نظرات عابرة فى المجتمع المصرى

لحضرة صاحب السعادة الأستاذ الكبير محمد العشماوى بك

المستشار الملكى ونائب رئيس رابطة الاصلاح الاجتماعى

آثرت فيما نويت الكلام فيه ألا أتقيد بموضوع معين . وإنما أجليها نظرات عابرة فى مجتمعنا المصرى ، ثم أرجع بوصف ما رأيت . وخليق بكل متحدث فى الإصلاح وبكل عامل فى ميدانه أن يرسلها نظرات عابرة فاحصة فى المجتمع الذى يعيش بين أظهرانيه ليتعرف إلى هذا المجتمع فى متباين أوضاعه وصوره ، حتى يتسنى له أن يرمى إلى هدفه من المساهمة فى رفع المستوى الروحى أهم الوسائل لخلق الشعوب وسلامتها والوصول بها إلى قمة المجد وقد ألقى علينا التاريخ دروسا من العبر الخالدة فصاراحا أن هبوط المستوى الروحى لا يجدى بجانبه ارتفاع أى مستوى آخر لشتى جوانب الحياة . فقد انهار الفرس وهم فى أوج الغنى والثقافة وعدة الحرب . ولم يستطع ملك الأكاسرة أن يثبت لتلك القنبلة الروحية التى انفجرت من جزيرة العرب ، كله لضعف القوة الروحية فى ذلك العهد ، وعلى هذا النحو تمزقت دولة الروم على الرغم من بسطتهم فى المال والعلم والحضارة والقوة المادية ، فقد انهزموا على كثرة من العدد والقوة بالنفر الأقل من جيش لم يزود بغير قوة الروح وصولة الخلق القويم ، فلبثت فئة قليلة وفئة كثيرة بهذا السلاح الماضى ، سلاح الايمان القوى العميق تصول به روح تطلب المثل العليا فى العاجلة والسلامة فى الآجلة وكتب للمسلمين الأعزاء بقوة أرواحهم ان يبسطوا سلطانهم على هاتين الامبراطوريتين . فاذا رددنا النظر فى مجتمعنا لنتبين علله ونعمل على إصلاحه فليكن هدفنا الأول رفع مستواه الروحى ، ولتكن نظرتنا إلى المستوى الاقتصادى والصحى والاقتصادى والعمل على رفعه بأية وسيلة للوصول إلى جعل المستوى الروحى أسمى درجة وأكمل شأنا ، لا باعتبار الثقافة والصحة والثروة غايات نقف بها وننتهى اليها ، فيجب أن تكون هذه الشؤون وسائل لا مقاصد ، ومراحل لا غايات ، وإنما تكون غايتنا السمو بالروح وتربية النفس لكى نطمع للمجتمع فى حياة طيبة كريمة يظلها الخير والسلام والتراحم والتوادد ، فنحن لا نطمئن إلى الثروة تتقلب بها الاموال بين الأيدى ، ولا نطمئن إلى العلم يكثر فينا المهرة والمتخصصين ، ولا نطمئن إلى الصحة تشتد بها السواعد ويسلم الأبدان من لأدواء ، فان كل هذه القوى جديرة أن تتلاشى وتتعادل وأن تنقلب شرا وبيلا إذا زلت الناحية الخلقية إلى الحضيض ، فالرفع المستوى الروحى اصطفى الله الأنبياء ، وأوحى اليهم بكتب السماء . فجميل بنا ونحن نلقى على مجتمعنا نظرات عابره مرة وعميقة مرة أخرى أن نستبين قدر ما بلغ المجتمع من شأو فى مستواه الروحى ، ولست أنادى مع ذلك باغفال

مستويات الحياة الأخرى ومقوماتها، فالصحة والثقافة والاقتصاد التي تؤهل المجتمع للنهوض بحياته الروحية أتم نهوض ، فالفقر يورث الشرور ويولد الرغبة المحمومة في الغنى ، ومشكلة الفقر وحدها كفيلة بأن تقوض أركان الحياة وتجعلها جحيما وشرا مستطيرا ، وأعني الفقر على اختلاف صوره . الفقر الصحي حيث يزحم المواطن تحت وطأة الأمراض تهدم كيانه فتقتل فيه توقد الذهن وتخمد فيه النشاط وتضعف الإنتاج ، فتزداد مشكلة الفقر تعقدا ، وتضيع الجهود التي تبذل لتوفير الثروة ، والفقر الثقافي حيث تسعى الأغلبية العظمى بالجهالة المطبقة تقضي حياتها في شبه غيبوبة ، إذ العلم يوقظ الإحساس ويذكي العقول وينير الأعين ، بينما الجهل هدوء وسكون وخمود من ورائه الفناء العاجل أو البطيء ، فهو نوع من المخدر أو السم الزعاف ونحن ما نزال نكافح لرفع الأمية التي هي فقدان الأداة الأولى للتعليم لا التعليم نفسه ، فالأمية معناها أن باب العلم مغلق ، وأن وسيلة الثقافة قد سدت ، فإذا كنا ونحن في القرن العشرين إذ بلغت الأمم أقصى حضارتها ما برحنا نعالج الثقافة في أول بدئها ، فمتى نفتح الباب ونسلك الطريق ونوفق على الغاية ؟ وما هو جهدنا في هذه السبيل ؟ قامت فينا ارستقراطية علمية ، فآحاد أو مئات أو آلاف أخذوا من المعرفة بوفر نصيب ، على حين يخبط الملايين في ظلمات الجهالة ومن شأن هذا الحال أن يخل التوازن بين أبناء المجتمع الواحد ، فينكر العلماء الجهلاء ، وينقم الجهلاء من العلماء ، ويتيح الكاتب لا يجد له من قارئ ، فلا يلبث أن تزيل مواهبه ويبطل إلهامه إذ يرى نفسه في وادٍ وسواد الشعب في وادٍ يخاطب الآحاد ويؤثر بتعاقبه أضيق محيط . وقد كان من أثر ضعف المستوى الثقافي أن نشأت مشكلة المتعطلين ، ويخطئ من يظن أن علة هذه المشكلة كثرة المتعلمين ، فإن بلادا مثيرة تماثلنا في المساحة لا يصح أن يقال عنه أن المتعلمين فيه قد زادوا عن حاجته ، ولا أحسب أن العلة في مشكلة التعطل راجعة إلى سوء إعداد الشبان للكفاح الحيوي ، بالواقع الذي يجب أن يعمله الناس جميعا أن المتعلم المصري بضاعة جيدة تلقى في السوق فلا تجد من يشتريها ، لأن عالية زبائن السوق ورواده لا يعرفون للعلم مصلحة ولا يقدرون له غاية ، يتخرج في معاهدنا ألوف تخصصوا في الصناعة فلا يجدون ميدانا يرحب بهم لأن أغلب المصانع تقنع بالأميين ، ويتخرج طلبة التجارة فلا تتسع لهم الأعمال الملائمة لثقافتهم في المتاجر ، لأن الأميين يملأونها ويتزاحمون عليها ، وهذا ذلك لأن فريقا كبيرا من العاملين في المحيط الصناعي والتجاري لا يشجع المتعلم ولا يفسح له الطريق لينفذ إلى صميم هذا المحيط ، وذلك لأن كل طائفة من هذه الأعمال في أيدي أميين لا يحبون أن يستخدموا الا من هم على شاكلتهم من الأميين ، وعندنا طلبة الزراعة الذين يتخرجون فلا يلقون في مصر الزراعية مجالا فسيحا ، فتضطر الحكومة إلى أن تقطعهم أراضي يستنبتونها وذلك لأن المحيط الزراعي العام لا يؤمن بأن الزراعة علم له قواعده وفنونه وتجاربه ، فملاك الأراضي يكتفون بما ورثوه عن آبائهم منذ آلاف السنين ولا يريدون أن يستخدموا خريجي معاهد الزراعة ليغزوا الحقول بعلم سديد وفن جديد ، ومن ذلك يتضح أن مشكلة

المتعلمين ترجع إلى هبوط المستوى الثقافي هبوطا مزعجا، فلو كانت الأمة مثقفة لاستعان التاجر والزارع والصانع بالمتخصصين في التجارة والزراعة والصناعة، ولاستوعب المحيط المصري كل من نجبهم لمعاهد عاما بعد عام.

وحين نلقي نظرة على المستوى الاجتماعي نرى أن شيوع المرض والجهل قد أثر كل منهما في الإنتاج أسوأ الأثر. فالملايين من أهل الوطن في حالة اجتماعية بدائية. وحسبك الريف مصداقا على أن المستوى الاجتماعي كان منذ آلاف السنين خيرا من وقتنا الحاضر. فالفلاح اليوم غذاؤه الذرة الصرفة وإنه ليرى نفسه أسعد الناس حالا إذا استطاع أن يلبي من الذرة ما يقوم بمؤنته بضعة أشهر، والأطباء يصارحون بأن هذه الذرة غذاء غير كاف والفلاح لا يجد في بيته رداء غير ما يستر به جسده، حتى إننا لنتناقل في مجالس السمر نادرة ذلك القروي الذي رأى مشحما يعرضه عليه أحد البائعة، فسأله: ما نفعه؟ فقال: نتعلق عليه ثيابك. فقال له دهشا: واقعد عريانا؟! وما كان الفلاح أن يفهم تعليق ثيابه وهو لا يملك إلا ما يابسه بل إنه ليتخذ من غطائه وفراشه. وأما بيت الفلاح فهو خلاء من الأثاث، وأنى له أن يفكر في ذلك وهو لا يكاد يملك قوت يومه. فإن مرض فلا مورد ولا مدخر. ويحضرني في هذه المناسبة أني شهدت نقاشا في مشروع فلاحي يراد فرضه على سكان القطر كله، يفرض هذا المشروع في بعض مواده أن يظل الرجل بعد فلاحه شهرا بلا عمل ليسترد قوته. فسأله سائل: من أين يقتات ذلك الرجل ويقوت عياله خلال هذا الشهر، وهو لا يملك إلا قوت يومه؟ فلا بد لتنفيذ هذا المشروع من تدبير القوت للأرض خلال فترة الفلاح والراحة، وإلا طاب لباهم بما لا يطيقون ولا يقل المستوى الاجتماعي في الأحياء الفقيرة في المدن الكبيرة سوءا وضعفه عن مثله في الريف. وربما كان في الريف أروح وأطيب حالا لطلاقة الهواء وانتشار أشعة الشمس في كل مكان يرتاده الفلاح، فإن الحجرات التي تسكنها الطبقات الفقيرة في البيوت العتيقة تملأها الظلمات والرطوبة ليل نهار. على أن هذا المستوى الاجتماعي الهابط لكل مقومات الحياة في المدن والريف متأثر بالخرافة أشنع تأثير، فكل شيء تبعه على الجن والشياطين والأولياء، فهم الذين يمرضون ويصحون، وهم الذين بأيديهم مقاليد الحظوظ ومقادير الأمور من خير وشر، وبذلك استحال هذا المحيط إلى نوع من الشرك يحتاج إلى من ينقذه من عمايته ويخرجه من الظلمات إلى النور. والحق إنا محتاجون إلى تجديد الرسالة، لأن الجهل في بعض هذه البيئات يكاد يقطع الصلة بالماضي، فقد تخلفت الخرافات في قرارات النفوس، وولدت الشرك والاعتماد على غير الله والاغترار بغير ما أمروا بالانتهاء بغير ما نهوا، فأصبحت هذه الجموع التي تعيش في بلد عامر بالمساجد والكنائس متنكبة طريق الدين، مناقضة لتعاليمه بوعي أو بغير وعي. ولا مرد لهذا البلاء كله إلا إلى الرسالة الربانية على العقول والألباب، ولا نحسبنا بحاجة إلى الحديث عن المستوى الاقتصادي الذي بعد أن عرفنا أن لا ثقافة ولا صحة، فمن الطواهر البائنة في الإيلام إلى أقصى حد أن معظم سكان القطر

فقراء جد الفقر ، وقد بات هذا جليا حين أعفت الحكومة من الضرائب صغار الملاك أو خفضتها بنسبة قليلة فانتفع بهذا التخفيض والإعفاء ملايين من الملاك ، وثبت لمن يعنيهم الإحصاء أن الأغلبية يملكون الكثير وأن العالبية العظمى من الملاك لا يملك كل فرد منها إلا أجزاء من الفدان وأن البقية الغالبة لا تملك شيئا ، ولست أريد فى علاج هذه الحالة أن أحرم أحدا ثمرة جهده ، ولا أن نغتصب حقه لنعطيه غيره ، ولكن يجب أن تنبهنا هذه الحالة إلى ما غفلنا عنه من ضرورة رعاية الأغنياء للفقراء ، فمن أجل ذلك شرعت الزكاة لتأخذ من فضل الغنى وترده إلى الفقير اذا تاح لليملك الغنى ما دياته له بقدرته وسعيه وظروفه أن يملك ، على أن يعلم حق العلم أن فى ماله حقا للسائل والمحروم فلا يتقلب الأغنياء فى مطارف النعمة ويتزودوا من شهى الطعام إلى حد التخمة ، على حين يتلوى الفقراء ويتضورون من جوع . فلو رجع الطاعم الميسور ببعض ما زاد عن حاجته على الفقراء والمحرومين لتبدل أنينهم مرحا وسخطهم رضاء ، ولكان هو أسعد حالا وأهنأ بالا وأعلى نفسا .

هذه نظرة عابرة فى مجتمعنا المصرى تنذرنا بشر وبيل ، فإن من شأن المجتمع الجاهل المريض الفقير ألا يستطيع السير قدما فى طريق الحياة ، وتحمل أعباءها يوما بعد يوم ، وليس هذا مما يلائم عظمة مصر السالفة فى الحضارة ، حيث اخترقت الأمم من مناهلها ، ووفد الرواد على جامعاتها يرتوون بثقافتها ، إذا أردنا لمصر فلاحا ونهوضا فلنبذل جبار الجهود لرفع المستوى الروحى وتوفير مقوماته ، فنحن إنما نموزنا روح الطموح والشجاعة فى سبيل الحق ، ويعوزنا التضامن والتصحية بالمال والنفس فى سبيل مجد الوطن ، ويعوزنا أن نحسن كيف نلتفع بوقت فراغنا ، ولنلق بنظرة عجلى على المرأة المثقفة العصرية ، لنرى ماذا تفعل فى وقت الفراغ ؟ فمن سوء الحظ أن الأمم فى أول تطورها ونهوضها يخونها التوفيق فيما تأخذ وما تدع ، فتراها تقبل على المظاهر البراقة ، وتعزف على الخير العالى من البريق ولقد كان حريا بالمرأة المثقفة العصرية أن يلى عاليا الإعداد الروحى الكامل عملا اجتماعيا مثمرا فى وقت فراغها بعد الدراسة أو الوظيفة أو رعاية المنزل ، تبدأ بنفسها فتنهض بالرياضة النافعة ما أفتدت من جهدها ، ثم تزيد بالرياضة الفكرية ثقافتها بقدر ما تتطلب الحياة من مزيد ثقافى ، وتقتطع من وقتها جانبا لخدمة الاجتماعية التى هى فرض عين على كل قادرة وقادر ، فلإصلاح المجتمع إلا إذا جند كل ذى قدرة على الخدمة الاجتماعية تجنيدا لا إباء فيه ، فيوجه كل فرد الى ما يطيقه وما يحسنه ، فيلتزم الطبيب مثلا بأن يهب بعض وقته لخدمة المجانية للفقراء ، ليقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له ، وقد أعطى الخالق الكريم الرحيم عهدا على نفسه بأن يجزى الحسنة بعشرة أمثالها ، ولعل من الخير أن أسوق الحديث إلى النساء والفتيات خاصة فإن الآن فى مفترق الطرق ، أصبح الكثير منهن بعد الجهل والحجاب مثقفات متصلات بأشتات العلوم والمعارف ، فعليهن أن يختزن رسالتهن فى الحياة ،

وقد وفقنا محمد الله إلى الاقناع بضرورة إعداد المرأة إعدادا يختلف عن إعداد الرجل ، وأمانا أن نرى جامعة خاصة لإعداد الفتاة لرسالة الفتاة ، بل جامعتين الفتى والفتاة في ميدان واحد تحرب الميدان الآخر : ميدان الأسرة . وإذا أخذ البيت قامت المكاتب وأنوجح التفكير وساءت الحياة ، وكثيرا ما قرأنا لأعاظم الكتاب قولهم . إن كان لنا فضل في هذه الكتب التي أنتجناها فروحاتنا أو أشباحنا هي أخرجتها لنا . وهم لا يعنون بذلك أن زوجاتهم أو من اليهم اشتركن في التأليف ولكن بتضليهن تمكنوا من الإنتاج العظيم في ظل حياة هادئة طيبة سعيدة . والفتاة حين تتعلم لتصنع أو تساعد تترك البيت خرابا والأسرة أشلاء ، وحين تتعلم للأمومة والزوجية تشرف على بناء تلك الخلية الحية ، وهي الأسرة ، وتعمل على إصلاحها والارتفاع بها الى المستوى الأعلى ، فان فاض نشاطها فتصلح الأخلاق في بيتها وتكون رسولا ينشر الهداية فيما حوله . على أن العمل لإصلاح الأسر يستغرق كل وقت ويستغرق كل نشاط ، فان الأسرة ليست غرفة تنظم وطعاما يطهى وملابس تغسل وطفلا يستحم ، ولكنها معنويات وسمعة متفوقة ، فمن مهمة الزوجة الصالحة أن تعرف كيف توجه الروح وكيف تشعره أن الحياة ومصاعبها أمر ميسور بالإيمان والإقدام ، فيجد ذلك الزوج منزله مرفأ يستريح اليه لا مجمع مشكلات تنتظره ليغوص في حلولها . وإذا حملت الزوجة أو ولدت أو أينع طفلها فان الفرصة أمامها سانحة لتكون تربية كاملة توجه الطفل توجيها يحمله في غده رجلا كاملا . وإن طفلا واحدا لكاف أن يشتغل وقت أمه وشد طويا وجهدها ، فكيف بنا ولأمهات عندنا بحمد الله كما قيل في الأثر "خيركن الودود الولود" ، فلو ترك الأطفال للخدم والمربيات المأجورات لنشأوا كما قال أحد الكتاب "خدما في روحهم وعقولهم" ، سمراة في ملابسهم وأجسامهم . وإذا كبر الطفل وبلغ مبلغ المراهقة والشباب كان أحوج ما يكون إلى الأم الصالحة المثقفة ، لأن التي المرادق في دور الاضطراب والالتباس والنظرة الصحيحة المحددة ، إلى الحياة يحفزه الشباب والفتوة الى الإقدام والتعجل ، وينظر الأب نظرة المتحضر الى البدائي ، ويرميه دائما بالتخلف في التفكير والامعان في الرجعية فلا ينفع بتجاربه ، فالأم في هذه الحالة أقدر من يرد هذا الفتى المضطرب الى حدود الاتزان والتعقل ، والفتاة في مثل هذه السن أحوج ما تكون الى الأم المنظم غرائزها وعواطفها وتجاربها مثمرة صالحة ، ولن لم تجد الفتاة تلك الرعاية الصادقة المخلصة فسد حالها والتوى تفكيرها وراح ما يبذل بعد ذلك لتقويمها ضياعا ، منثورا لقوات الوقت وانتهاء دور التكوين . وتؤثر المرأة لنفسها طريق الخير والاصلاح الحق : وهو القيام على بناء الأسرة ، ولتدع للرجل "طريق كسب القوت والبناء المادي والتوجيه العام" فطريقها أزكى نباتا وأبقى أثرا وأشرف غرضا . وإني لآمن إيمانا وثيقا بأن توجيه المرأة هذه الوجهة حقيق بأن يثمر للأمة من شجرة الأسرة ثمرات طيبة ترفع شأن الوطن وتعلي كلمته والله المسئول أن يعيننا على تحقيق ما نصبوا اليه من كرائم الآمال .

محمد العشماوي